الفصل السادس
من هو الطبيب المتميز؟ وكيف تصبح واحدًا؟

لكي يكون الطبيب متميزًا فعليه أن يكون أكثر من مجرد كاتب وصفة أو مضمد جرح.

كان باعث كتابة هذا الفصل هو أني عثرت على إجابات جديرة بالتوثيق لسؤالين يسيرين طرحتهما المجلة الطبية البريطانية (British Medical Journal) على الأطباء وغيرهم في أنحاء العالم جميعها، كان السؤال الأول: (من الطبيب المتميز؟)، والآخر: (كيف تصير واحدًا؟). جاءت الردود من مئة مستجيب واثنين آخرين، جميعهم من أربع وعشرين دولة، وكان المستجيبون أكثر وضوحًا في الإجابة عن السؤال الأول، وذكروا أكثر من سبعين صفة للطبيب المتميز، وكما هو متوقع فقد كان من الصفات المذكورة: الأمانة، والرأفة، والتفهم، والتمكن، والالتزام، والإنسانية، وذكر قليل منهم: الشجاعة، والإبداع، والعدل، والاحترام، والتفاؤل، والرحمة. كان لكل مستجيب شيء يقوله غير ما قال الآخرون، وبرر أحدهم ذلك بأن مصطلح (الطبيب المتميز) يحمل معنى مختلفًا باختلاف الناس والزمان والمكان، تمامًا كما تعني السيارة المتميزة لهم[29].

سنحاول تلخيص ما جاء في ردود المستجيبين مع إبداء وجهة نظرنا في من هو الطبيب المتميز، وكيف لأي طبيب أن يصبح طبيبًا متميزًا. يقول أحد المستجيبين: «لكي يكون الطبيب متميزًا فعليه أن يكون أكثر من مجرد كاتب وصفة أو مضمد جرح»، وعدّد (103) من الصفات التي يجب أن يتصف بها الطبيب المتميز، وسمى ذلك (أ ب ج الطبيب المتميز)، ووضع لكل حرف من الحروف الإنجليزية صفة أو أكثر، فبحرف الـ (A) يجب أن يكون الطبيب (Attentive)؛ أي مصغيًا لاحتياجات المريض، و (Analytical)؛ أي يمتلك المقدرة على التحليل، وببقية الحروف الأبجدية يجب أن يتصف الطبيب بأن يكون: ناصحًا، ومطمئنًا، ومتزنًا، ومؤمنًا، ومقدامًا، وشجاعًا، ومتمكنًا، ورؤوفًا، وواثقًا، ومبدعًا، وهادئ الطبع، وصاحب ضمير، ومتعاونًا، ومثقفًا، ورقيقًا، ومتمسكًا بالأخلاق، ومتفهمًا، ومتحملًا، ووديًّا، ومرنًا، ورقيقًا، وإنسانًا، وأمينًا، وخفيف الظل، ومتواضعًا، وحكيمًا، ومرحًا، وعادلًا، ومنصتًا جيدًا، ومخلصًا، ودائم التعلم، ونبيلًا، ومتفتح الذهن، ومهنيًّا، وصبورًا، ومقنعًا، وواقعيًّا، وحساسًا، وعالمًا، وماهرًا، ومحدثًا، ومفكرًا، ومعلمًا، ومتقنًا، ومتفكرًا، وصدوقًا، ودافئًا، وساحرًا، وأخاذًا.

ويرى أحد المستجيبين أن الطبيب يحتاج إلى قليل من السحر، ويقصد بذلك أن السحر يتأتى من كون الطبيب شخصًا شاملًا ومتكامل الشخصية وجاهزًا في كل وقت ليعطي أفضل ما عنده، ليس فقط لإنقاذ الحياة، بل لجعل الناس أكثر راحة وسعادة، وأن ذلك يتطلب شيئًا من السحر، ويقول إن الطبيب المتميز لا بد أن يدرك - دائمًا - أنه بشر، وبهذه الصفة فإن له حدودًا، على أن هذه الحدود يجب ألا تجعله عاجزًا، ولكن تقويه ليكون إنسانًا وطبيبًا جيدًا.

يقول المحرر: إننا ربما نتوقع أن يكون الطبيب جيدًا أو متميزًا أكثر مما هو ممكن؛ لأن تدريب الطبيب يمكنه من تجويد أساسيات أكثر من علم؛ مثل: التشريح، وعلم العقاقير، والتغذية، وعلم النفس، وغيرها. ونطلب إليه فوق ذلك أن يكون: عالم أجناس، واختصاصي اجتماعي، وعالم أخلاقيات. ولا شك في أن ما نطلبه من الطالب والطبيب أمر مربك[30]، والأمر المحزن أننا فوق ذلك نرى – وبصورة يومية – في الأدبيات ما يقال عن قلة معرفة الأطباء بأمور مهمة، مثل: عدم السؤال عن سلوك المريض، أو سوء المعاملة في الأسرة، أو بعض المعتقدات السائدة في المجتمع، أو احتياجات المريض الروحية، أو أنهم لم يحدثوا معلوماتهم عن التفاعل بين الأدوية.

ولذلك فالأطباء يترنحون بين طول الخبرات والتخصصات وعرضها التي يجب أن يتقنوها. يقول المتداخل إنه ليس بإمكان الأطباء أن يهضموا أو يستوعبوا هذه المعارف أو المهارات كلها، أو – على الأقل – لا يستطيعون تجويدها، ويرى أن الطبيب المتميز بحق هو الذي يمتلك المهارات التقنية لصناعة الطب، وأنه الذي يتفهم أبعاد مشكلة مريضه حتى يستدعي مهارات من يشاركونه في علاج المرضى، مثل: الممرضين، والاختصاصيين الاجتماعيين، والمعالجين النفسانيين، واختصاصيي العلاج الطبيعي، والفنيين، وحتى رجال الدين؛ ليتمكن من توفير فرص شفاء المريض واسترداد صحته.

ولعلنا نتفق مع جل ما ذهب إليه هذا المتداخل ونختلف معه في بعضه الآخر، نتفق معه في أن الطبيب لا يمكن أن يكون اختصاصيًّا في العلوم والمهن كلها، وأنه لا بد أن يدرك أهمية أعضاء الفريق الطبي الآخرين وما يمكن أن

يقدموه لمريضه. لا نريد للطبيب - مثلًا - أن يكون عالم أنثروبولجيا، ولكن يجب عليه أن يعرف كيف يسأل مريضه عن عاداته وتقاليده؛ لأنه بغير معرفة ذلك - ربما - لا يمكنه الوصول إلى التشخيص الصحيح. لا نريده أن يكون اختصاصي تغذية، ولكنه لا بد أن يسأل الأم إذا ما كانت ترضع طفلها أو متى فطمته عن الرضاعة؛ لأن ذلك قد يكون له علاقة بحالة الطفل المرضية أو التغذوية. لا نطلب إليه أن يكون مستشارًا في المشكلات الزوجية، ولكنه يحتاج إلى أن يكتشف أي مظاهر لسوء المعاملة الزوجية مما يؤدي إلى اكتئاب أحد الطرفين.

إن الطبيب الجيد إنسان وديع متواضع، يحسن الإنصات لمريضه، ويتحصل منه على الكم المطلوب من المعلومات المتعلقة بحالته، سواء أكانت: طبية، أو اجتماعية، أو روحية؛ مما يساعد في النهاية على تحقيق شفائه. أما اختلافنا مع المتداخل فيما ذهب إليه من أن ما نطلبه إلى الطبيب أمرٌ مربك وعصيٌّ على التحقيق، فهو في تصوره أننا نطلب إلى الطبيب أن يحرز مستوى التخصص في العلوم ذات العلاقة بممارسة الطب، ولا يظنن أحد أنني أعني بالطبيب خمس نجوم أو الطبيب (المتميز) أن يكون عالم اجتماع، أو عالم أجناس (إنثروبولوجيا) أو اختصاصيًّا في اقتصاديات الصحة أو علم النفس؛ إنما المقصود أن يتعلم من هذه التخصصات كلها الحد الأدنى الذي يمكنه من أداء عمله على الوجه الأكمل، إن كان: تشخيصًا، أو وصفًا لعقار، أو تحويلًا لزميل في تخصص آخر. وهذا في رأيي ما يجعل موسوعية الطبيب أمرًا ممكنًا؛ لأنه يتعامل مع أبسط المخلوقات في الكون وأعقدها، ألا وهو الإنسان. ولتحقيق هذه الموسوعية ينبغي لمنهج التعليم الطبي أن يتضمن ذلك الحد الأدنى من

العلوم المرتبطة بالممارسة الطبية، وإذا لم يتسع لذلك كله فعلى الطبيب أن يتقن مهارات التعلم الذاتي حتى يحقق ذلك لنفسه. ومما يجعل الأمر ميسورًا أن الطبيب لا يحتاج إلى هذا التعلم كله دفعة واحدة، فبإمكانه التعلم عند الحاجة، ونحن في عصر يتمكن فيه الطبيب من إخراج هاتفه الذكي من جيبه ويحصل خلال لحيظات على المعلومة التي يريدها في أي مجال كانت، وبإمكان الطبيب أن يحتفظ بأحدث الكتب والمجلات في المجالات جميعها في هاتفه المحمول، ولا ضير في أن يلقي الطبيب نظرة على هاتفه قبل الاستشارة وبعدها، أو حتى في أثنائها، دون أن ينتقص ذلك - كما يظن بعض الأطباء - من قدر الطبيب.

يقول متداخل آخر إن على الطبيب أن يحسن استخدام أدوات صناعته، وعليه أن ينصت لكل ما يقوله مريضه. وقديمًا قال الرازي: «ينبغي للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته»، وعلى الطبيب أن يرى بعينه ما يمكن أن يرى من المريض، وأن يستنبط بعقله وفطنته كل ما لا يقال، وحين يهضم الطبيب ذلك كله عليه أن يستخدم فمه ولغة جسده لطمأنة مريضه. إن مهنيتنا تفرض علينا التمسك بأسمى القيم؛ وباستطاعتنا أن نفعل ذلك إذا ما أُحْسِنَ تدريبنا، وأعطينا المريض الوقت الكافي، ونجعله في نفس الوقت يتذكر واجباته نحونا.

حاجة الطبيب إلى التوجه الإنساني

في بلادنا الموسومة بالنامية، وبكل ما فيها من نقص في المرافق، وبأن المريض يحتاج إلى الطعام قبل الرعاية الصحية؛ علينا التحلي بالإنسانية

وأخلاقيات المهنة أكثر من المهنية العلمية. كان ذلك مضمون مداخلة طبيبة امتياز من السودان في إجابتها عن السؤالين اللذين طرحتهما المجلة الطبية البريطانية، تقول الطبيبة السودانية إن على الطبيب المتميز أن يتمتع بقدر كبير من الصبر، وأن يشرح ويعلّم قبل أن يصف الدواء، وأن يفكر كثيرًا في القرار الصائب بالنسبة إلى مريضه؛ لأن ذلك ليس بالضرورة موجودًا في الكتب. طلب الطبيب إلى المريض إجراء الفحوصات؛ لتأكيد ما وصل إليه من التاريخ المرضي والكشف، وطلبه فحوصات قد لا تغير من المعالجة كل ذلك غير مبرر. وتمضي الطبيبة الحكيمة - بالرغم من حداثة تجربتها في المهنة - بالقول: إن قرار اختيار الدواء الذي سيصفه الطبيب يجب أن يخضع لاستطاعة المريض، وتقول الطبيبة: إن توفير الزمن واختيار اللغة التي تناسب كل مريض أمور لا يدرب عليها الطبيب في أثناء دراسته. وربما نختلف مع المتداخلة في أن المناهج الحديثة بكليات الطب تتضمن تدريبًا على مهارات التواصل، مما يسهل على الطبيب اختيار اللغة التي يتحدث بها مع المريض. وتقول الطبيبة: إن تريث الطبيب وانتظاره أفضل من التدخل القاصر والمؤقت الذي قد يضاعف معاناة المريض، وإن على الطبيب أن يشاطر مريضه تحمل المعاناة بحس إنساني اجتماعي وليس بحسٍّ بيولوجي، وهذه هي المهارات التي يحتاج إليها الطبيب، وربما لا يوفق - دائمًا - في تجويدها. وتعترف المتداخلة بأن شعار كلية طب الخرطوم التي تخرجت فيها (الأمانة والتواضع) (Honesty and Humility) شعارٌ يسهل ترديده، ولكن تصعب ممارسته في ظروف مثل تلك التي في قسم طوارئ مكتظ حين يبلغ الإرهاق والعصبية مداهما لدى الطبيب[31].

تجربة المرض تساعد على التميز

قدم المحرر لمداخلة من أستاذ للأمراض الجلدية بأهمية أن يدخل طالب الطب في تجربة مرضية حقيقية أو مفتعلة، ويرى أن ذلك أمر مفيد حتى ولو تخرج الطبيب في أفضل كلية للطب ودرّسه أفضل الأساتذة وامتلك ناصية المهارة السريرية. يرى أستاذ الأمراض الجلدية أهمية أن ندخل طالب الطب في تجربة سحب دم شخص غير متمرس من وريده، أو نحاول إدخال أنبوبة معدة له مرة أو مرتين، أو نعرضه لمنظار القولون، أو حتى تنويمه بالمستشفى لليلة أو اثنتين بعد فتح وريد وتركيب مغذٍّ ومن ثم عناية متعجلة من أطباء وممرضين لا يحسنون الرعاية. يراهن هذا الأستاذ على أن تعريض طالب الطب أو الطبيب لمثل هذه التجربة سيجعل منه طبيبًا أكثر تفهمًا ورأفة، بل طبيبًا متميزًا بأفضل مما لو تعرض لعشرات المحاضرات عن الرحمة والإنسانية لأساتذة الأخلاقيات أو الأكاديميين. وقال إن تجربة المرض التي مر بها حين كان طالبًا أعانته كثيرًا على اكتساب حسن رعاية مرضاه، ومصداقًا لهذا قول أحد المتقدمين: «من تربى في العافية قد لا يعلم ما يقاسيه المبتلى، وقد لا يعرف مقدار العافية». ربما يكون من الصعب تحقيق ما ذهب إليه هذا المتداخل، ولكن لا نشك في أن تجربة المرض تفيد الطبيب وتجعله أكثر تفهمًا.

الطبيب المتمكن من وجهة نظر ممرضة

ترى متداخلة ممرضة أن درجة التميز في الطب ليست أمرًّا عصيًّا، وأن مفتاح وصول الطبيب إلى هذه الدرجة هو أن يكتسب الثقة بعدم الحاجة إلى

العون أو المساندة حين يكون قادرًا على أداء مهمة ما أو اتخاذ قرار ما، وأن يطلب العون فقط حين لا يكون قادرًا على أداء المهمة. تذكر الممرضة الطبيب بأن الحس السريري في أغلب الأحيان أهم من نتائج الفحوصات، وأنه يجب النظر إلى المريض وليس للأرقام أو صور الرنين المغناطيسي.

وتمضي الممرضة المتمرسة لتؤكد أن الطبيب المتميز هو الطبيب الذي يحسن العمل ضمن الفريق الطبي، إذ إن الممرضات وأعضاء الفريق الصحي الآخرين بإمكانهم جعل حياة الطبيب إما ميسرة أو نكدة؛ ذلك أن معظم أطباء الامتياز والأطباء المقيمين محدودو الخبرة العملية، في حين أن الممرضة المتمرسة ذات الخبرة الطويلة يمكن أن تكون عونًا وساعدًا أيمن للطبيب، وتقول إن الطبيب لا تنتقص مكانته إذا طلب العون من الممرضة الخبيرة، بل يكتسب احترامها بمعرفة حدوده؛ فهؤلاء الممرضات يتعاملن مع كبار الاختصاصيين، وبإمكانهن أن يطلعن الأطباء المحدثين على ما يطلبه أولئك الاختصاصيون خلال مرورهم اليومي على المرضى، أو متى يستحسنون طلب المساعدة. وتذكر الممرضة الأطباء بأن الممرضات لا يحسدن الطبيب أو ينافسنه في مسؤولياته، ولكنهن يتوقعن أن يهتم الطبيب بمخاوفهن وتساؤلاتهن، ولا يزعجهن ألا يقبل الطبيب نصحهن، فقط يهمهن أن يشعرهن الطبيب بأنه يأخذ في الحسبان آراءهن. وفي ختام نصحيتها للطبيب ترى هذه الممرضة أن التواصل مع المريض هو ما يصعب على كثير من الأطباء، فتوصي بالإنصات للمرضى ومحاولة تفهمهم؛ لأن المسؤولية النهائية في أي قرار يجب أن تكون عليهم. وتقول إن السياسات والإجراءات المتبعة يمكن تطويعها لتناسب المريض، وما على الطبيب إلا أن يوثق ذلك حين يحدث تضارب.

ما أحوجنا في هذا المقام إلى تعزيز التعاون بين الطبيب وأعضاء الفريق الصحي من ممرضين وغيرهم! وهنا تبرز أهمية الدور القيادي للطبيب والذي خصصنا له جزءًا من الفصل الثاني عشر.

الطبيب المتميز في نظر مريض

وأدلى مريضٌ بدلوه في حوار الطبيب المتميز، فحكى قصته. يقول: تحولت ذات مرة من إنسان معافًى إلى مريض يحمل رقمًا لمقابلة الطبيب، لم يُعر أحدٌ انتباهًا إلى أنني كنت موجودًا قبل تسجيلي في العيادة، ولم يهتم العاملون لملفي السابق بوصفي مريضًا؛ فشعرت بعدم الراحة حين جلست إزاء الطبيب لأحدثه عما حدث لي، واكتشفت أنه لم يسجل النقاط التي أعتقد أنها مهمة في ملفي، ثم أحسست أن رأيي فيما حدث لي كان مثار سخريته، ولكني في نهاية الأمر كنت مجرد حالة. يقول: بعد ذلك صرت أعود طبيب الأسرة الأول الذي انتقلت من منطقته، صرت أعوده كمقيم مؤقت في منطقته كلما شعرت بالحاجة إلى الاستشارة الطبية، ثم يتساءل: ما الذي يجعل طبيب الأسرة الأول رائعًا والآخر غير ذلك؟

ويجيب بنفسه على التساؤل: صار طبيب الأسرة الحقيقي الخبير الصديق، كان يهتم بي بوصفي إنسانًا وليس مجموعة أعراض وعلامات، كان يعرف متى يتكلم، ومتى يصمت، كان تاريخي المرضي هو تاريخي المرضي نفسه، وليس أسئلته هو وأجوبته. لقد أشعرني بالتمكين، ولم يحملني على شيء لا يروقني، كان يحترم رأيي فيما أرى أنه قد حدث لي. إن تجاربي مع الأطباء

تجعلني ألخص رأيي في ما أعتقد أنه استشارة طبية جيدة، في مثل هذه الاستشارة: الطبيب يسأل والمريض يجيب، الطبيب يوظف معلوماته ومهاراته لمساعدة المريض على استنباط الإجابات المفيدة، والمريض بعد ذلك يقرر لنفسه الدعم الذي يريده من الطبيب. إن شعوري بالتعاسة يبدأ حين يعبئ الطبيب استمارة بالإجابات التي يريدها هو.

من سيذكر بأنه طبيب متميز؟

تقول متداخلة أخرى بأنها ذهبت لحضور حفل تأبين طبيبة متميزة، وسمتها باسمها، وأنها كانت زميلتها وطبيبتها لأعوام خلت، وتصفها بأنها شخص لا يضاهى؛ إذ تمكنت من التخرج طبيبة بالرغم من إعاقتها بشلل الأطفال ومشكلات صحية أخرى في أثناء الدراسة. تقول المتداخلة:

> **«كنت أتعالج أنا وزوجي طيلة خمس سنوات من قلة الخصوبة مع عدد من الأطباء، كان نصيب فيليس (اسم الطبيبة التي يقام لها حفل التأبين) بضعة أشهر من هذه الأعوام الخمسة، كنا معها على غير حالنا مع الآخرين؛ لا نحس قساوة الفحوص الصعبة إلا كالإحساس حين تفحص أذني، كان ذلك بسبب رقتها في التعامل معي، وعلى وجه الخصوص بسبب مهارتها الفائقة في التعامل مع الآخرين، لقد كانت وحدها الطبيبة التي استطاعت أن تتعامل مع خيبة أملنا من فشل المعالجات. بوصفي زميلة لها - وكنت وقتها مسؤولة تحسين الجودة - تعرفت حدبها وسمعتها الطبية في مجال تحسين تقنيات الرعاية الصحية، وتعرفت مواهبها ككاتبة ودرامية ومديرة. لم تكن فيليس مبرأة من كل عيب، ولكن مقدراتها وحساسيتها في علاقاتها مع الآخرين، وحفاظها على مستواها المهني**

ذلك كله جعل منها طبيبة متميزة. كانت تجد متعة خاصة ومقدرة في التواصل مع القادمين من خلفيات محرومة تمامًا مثلما تتواصل مع المرضى المتعلمين والميسورين. كانت الجلسات الاستشارية مع فيليس عبر السنين أرقى وأرفع من أي استشارات؛ لأنها كانت ملائمة للمريض الذي أمامها».

تقول المتداخلة: «لا يوجد طبيب يمتلك الكمال، ولكنه الطبيب الذي يدرك محدوديته ومحدودية مهنته، الطبيب المتميز لا يزعجه نقص المعرفة، وهذه خاصية تمكنه من تأجيل القرار والتعامل مع الأوضاع العسيرة، وهو الذي يسعى دائمًا ويبحث عن الحلول المبتكرة في اللحظة التي أمامه، وهو صاحب المقدرة على الأمل وتحمل الفشل في آنٍ واحدٍ، وهي أمور تختلف لدى المرضى؛ ولذا فهو على استعداد لتلبية الاحتياجات كافة».

الطبيب المتقاعد: لو استقبلت من أمري ما استدبرت!

واستقبل المحرر مداخلة من طبيب متقاعد يقول: «قبل أن ألج عالم الطب كنت أعلم من هو الطبيب المتميز، كنت طالبًا ناضجًا، وكانت لي خبرة طويلة بوصفي مريضًا؛ إذ تعرضت لسحب الدم بالطرق القديمة، وتجرعت وجبة الباريوم، وأجريت لي عملية منظار للقولون، وغذيت بأنبوب الأنف والوريد، وأجريت لي أكثر من عملية جراحية بتخدير كامل، حين ذاك علمت من هو الطبيب المتميز ومن هي الممرضة المتميزة، وبمجرد تخرجي في كلية الطب صارت الأمور مختلفة؛ فبالرغم من مثالياتي صرت أقل ميلًا إلى الجلوس

والإنصات، لكني كنت أحب عملي ومرضاي وأشعر نحوهم بالرأفة. لكن - وبمرور الوقت - تغيرت الأمور، وبالرغم من دراستي الآداب والفلسفة وموهبتي في اللسانيات والتفكير الصافي إلا أنني رأيت العاطفة والرأفة تتسربان من روحي، وجدتني أنصهر من ضغوط العمل ومن القلق على أحوالي المالية ومن زوجتي وأطفالي الخمسة الذين علي أن أرعاهم وأسعدهم، سئمت من عمل اللجان والمسؤوليات الإدارية، ثم صرت أقل رغبة في الإنصات وأقل قدرة على العناية بالمرضى، وبمجرد تقاعدي تغيرت الأمور مرة أخرى.

فجأة تلاشت مخاوفي المالية، فلدي مدخرات بدلًا من ديون، ترك أغلب أبنائي العش، توافر لي الوقت مرة أخرى، وصرت أعمل استشاريًّا مؤقتًا هنا وهناك. حينها شعرت بالمتعة في ألا أكون متفرغًا تمامًا للعمل، حين انتهى زمان اللجان والمسؤوليات الإدارية؛ فقط العمل في العيادة الخارجية وشيء من التدريس. صار باستطاعتي الجلوس والإنصات للمرضى وذويهم، فأحدث كل ذلك فرقًا كبيرًا. والآن لو عاد بي الزمان فهل سأكون غير ما كنت؟ إنني لست متاكدًا من ذلك، ولكن لتمنيت أن أكون أقل همًّا وقلقًا، ولكنت أكثر صبرًا مع مرضاي ومع نفسي. ولكن الأحوال الآن تغيرت تمامًا، ففي أيامنا وحين كنت طبيبًا يافعًا كنت أناوب مئة وثماني ساعات في الأسبوع، هذه الأيام لا تتعدى المناوبات ثمانين ساعة. وكاختصاصي في يومنا هذا لن تكون مناوباتي أكثر من واحدة كل أربعة أيام. فهل سيسهل علينا ذلك كله حب مرضانا؟ من كل قلبي آمل ذلك».

خلاصة المداخلات

يلخص المحرر زبدة المداخلات بأن هناك كثيرًا من الأطباء المتميزين، وعلينا رعايتهم ورفدهم، وعلينا إدراك أن الطبيب إذا أراد أن يكون متميزًا فعليه أولًا أن يكون إنسانًا جيدًا؛ زوجًا جيدًا وزميلًا جيدًا وسائقًا جيدًا على الطريق، وأن من السهل على الطبيب أن يكون جيدًا إذا أحب الناس وأحب مساعدتهم، وأن كل شيء يبدأ من حب الآخرين. إن الطبيب الجيد بخلاف المهندس الجيد أو المحاسب الجيد أو رجل الإطفاء الجيد، لا يقبل منه الأداء فوق المتوسط؛ إذ لا بد أن يكون متميزًا بصورة استثنائية. ويورد المحرر قول أحدهم بأن من المهم أن يجد الطبيب ممارسة الطب شيئًا مرحًا، جذابًا ومثيرًا، وقول الآخر بأننا لكي نحصل على الطبيب المتميز فعلينا اختيار الطلبة أصحاب المواهب والاستعداد، وليس اختيارهم بناء على النسبة التي يحرزونها في الاختبارات، ومن ثم علينا أن نجنبهم السخرية والاستهزاء في أثناء دراسة الطب.

إنني أتفق تمامًا مع ما ذهب إليه هؤلاء المتداخلون لا سيما من دعا إلى تجنب السخرية والاستهزاء بهم طلابًا؛ فقد رأيت بعض الزملاء من الأساتذة يسبون الطلبة وينعتونهم بأقذع الصفات؛ فإذا كان هؤلاء قدوة الطالب فيجب ألا نتوقع منه بعد التخرج إلا ما سمعه من أستاذه، والواجب ألا نعمم؛ لأن من يسب ويسخر من الطلبة قليل، ومن يوقرهم ويحترمهم كثير.

ونختم هذا الفصل بفقرة من كلام أبي الطب (أبقراط)، إذ يعدد بعض الصفات الحسية والأخلاقية للطبيب فيقول:

«وينبغي لمتعلم للطب أن يكون جيد الطبع، حديث السن، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأي عن المشورة، عفيفًا شجاعًا، غير محب للفضة، مالكًا لنفسه عند الغضب، ولا يكون بليدًا. وينبغي له أن يكون مشاركًا للعليل مشفقًا عليه، حافظًا للأسرار، وينبغي له أن يكون محتملًا للشتيمة؛ لأن قومًا يقابلونا بذلك. وينبغي له قص أظافر يديه ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه، وينبغي له أن تكون ثيابه بيضاء نقية لينة، ولا يكون في مشيه متعجلًا؛ لأن ذلك دليل على الطيش، ولا متباطئًا؛ لأنه يدل على فتور النفس. وإذا دعي إلى المريض فليقعد متربعًا، ويختبر منه حاله بسكون وتأنٍ، لا بقلقٍ واضطراب».

ويستطرد أبقراط فيقول: «إن الطب أشرف الصنائع كلها، إلا أن نقص فهم من ينتحلها صار سببًا في سلب الناس إياها؛ لأنه لم يوجد لها عيب غير جهل من يدعيها ممن ليس بأهل للتسمي بها، وينبغي لمن أراد تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية، وحرص شديد، ورغبة تامة، وأفضل ذلك كله الطبيعة؛ لأنها إذا كانت مؤاتية فينبغي له أن يقبل على التعلم ولا يضجر؛ لينطبع في فكره ويثمر ثمارًا حسنة، مثل ما يرى في نبات الأرض. أما الطبيعة فمثل التربة، وأما منفعة التعليم فمثل الزرع، وأما تربته فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة»[32].

وبعد أيها القارئ، إني لأرجو أن يكون في سرد هذه الأقوال شيءٌ نتذكره ونحن نمارس المهنة، وأن يكون فيها أيضًا ما يستدعي الذاكرة من أمور مشابهة مرت بنا؛ وأن تخفف هذه اللمحات من رتابة الاستطراد في وصف الطبيب المتميز.